بين دمشق والقاهرة[١]

سادتي الاخوان

بمصر النيابيين وفيه صدق فضلكم حفاوة ومقابلة عواطفكم الجليلة بمثلها فقد كسوتم وطنيكم هذه الحلة تعرفنا قامته وطار احساسكم الشريف في مظهر انساه ما لقيه من المشاق في سبيل الوصول الى حماكم فدمتم ودامت مواردكم [illegible] الملتفات وما [illegible] به في الطلبات . ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن ازور مصركم في اثناء الفصل لاني من خطبة فيها من خلص الاصدقاء مصريين وعثمانيين ولكن قضت الاقدار ان أهبط مصر في صيفها وأهلها يرحلون عنها على الاغلب جفوة في فصولها الاربعة لان السير في السكك لا في المسكن كما كنت أود ان أشخص اليها من طريق البحر المطروق في ست وثلاثين ساعة موفورة لي اسباب الراحة لا ان آتيها من طريق البر المهجور على مطية الهجن في السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوما وأتي فيها من فقد الراحة ما يلقاه في العادة التجار في القفار

ان ما حملني على اجتنابكم في هذه الحال تعرفونه بأجمعكم وليس بدع ان ينال منه كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل في بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه . ومن ابتلي بحب الحق استعذب الاذى اذا اتيح عليه نفعا للخير العام

قضيت في الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوما في زيارة مدينة الرسول وآثار وادي موسى أو بترا المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد مآب أي الكرك وأرض الشراة

---

[١] وهي محاضرة [illegible] في [illegible] ([illegible]) على جمهور من اخواننا السوريين والمصريين

التي كان يشكو منها الناس في أيام بني عثمان أخرجت الحكومة الوطنية [illegible] البلقاء التي كانت مضافة إلى [illegible] حكومتها في دمشق وغير ذلك من الأقاليم في أقصى حدود بلاد الشام العثمانية ومن هذه الأقاليم ما وصل إليه الخط الحجازي ومنها بعض البلاد [illegible] فلما قدمت إلى دمشق [illegible] من وطأة السفر أخذت الحكومة العليا [illegible] الحكم المطلق والحكم المقيد من خرق قانون الحرية الشخصية والفكر ومحاربة الميل [illegible] بلا موجب.

عجبت وما عجبت من أصدقائي في سورية [illegible] القانون الأساسي أن يكون في بلاد الشام حكم يستمتع به العاملون على خلاف [illegible] وتعليم [illegible] الأمة [illegible] الحكومة في الآستانة والمرسلة [illegible] إلى البلاد [illegible] بعد سقوط دولة [illegible] سياسة [illegible] الأول يكون الجسم [illegible] في صورة حربية فكلما [illegible] يطلب من مطالب الإصلاح [illegible] [illegible] قال ابن أبي طالب [illegible] [illegible] ولا [illegible] الحكومة [illegible] من الأستانة [illegible] الحكومة [illegible] [illegible] من خلف [illegible] [illegible] الحكومة [illegible] يحتاجون من ضروب الإصلاح التي لا يستكفها كل ضعيف في حكومة هذا الشرق [illegible] من أن [illegible] لا [illegible] [illegible] وصح له الاحتلال الطويل ... ولا [illegible].

[illegible] هذه [illegible] القانون [illegible] الضعيف من القوي [illegible] القانون عندهم إلا هوى القوي ولا [illegible] [illegible] ولا [illegible] أن الدول إذا [illegible] من العسف والميل والأهواء [illegible] ويسلك [illegible] الأمم [illegible] هذا السبيل [illegible] في موقفها

الابريز الخالص والعين الصافي وان ذهبت مع الاغراض والنقود وماجت سماسرة البغي والباطل فوق البهرج والزائف

ولما أرسلنا فيه الريح ساعة بلغنا ان الحكومة العلية في سورية تريد القبض علينا في نحو . فقصت على شقيقنا احمد المدير المسؤول لجريدة المقتبس فسرنا (يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩١٢) ندون ريث بين حدائق ضاحية دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية منها في المكان المعروف بجنة السيار ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشيا على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالصعيد في الجبل أيضا وهناك اختبأنا في احدى قرى وادي العجم أياما حتى تهيأت لنا أسباب الهربة على حصان في صحابة صديق لنا قديم وافقنا من اقصى حدود وادي العجم ثم سرنا من طريق معوج اخترنا فيه أراضي المزة و [illegible] والاشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب ثم دير العدس والفقارة من قرى اقليم الجيدور المعروف عند الافرنج بايتورة حتى بلغنا الفقرة من بلاد الجولان التي يسميها الافرنج غولانيتيد وقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا عمنا في الليلة الثانية على مقربة من نهر الاعوج المعروف في الكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادي العجم

وفي الجولان اتصلنا بجماعة من تجار الابل ذاهبين الى مصر فسايرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيها وبتنا في الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الفيق هبطنا العقبة وهي لا تقل عن ساعتين وتعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنها يشرف المرء على أراضي الغور وغور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أي الاردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الاول سباحة على الدواب ثم ركبنا السهل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبلين منفرجين قليلا من عمل طبرية عاصمة الاردن القديمة [illegible] أصبح أكثره ملكا للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستثمرونه ويستعمرونه على طريقتهم المتعارفة في بلاد الغرب حتى تقدمت [illegible] الفرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين بين [illegible]

ما ملكتهم [illegible] في قرية كفر سبت [illegible] من مهاجرة الجزائر فبتنا تلك الليلة في بيوت [illegible] الصبح على ساعتين من الناصرة وفي سفوح جبل الطور المشهور في التاريخ المسيحي

وفي اليوم الرابع [illegible] من شجر البلوط [illegible] آية الخراب كما [illegible] الأرض [illegible] كان من [illegible] الى قرية ولا [illegible] فيه [illegible] وفي منقطع أرض هذه [illegible] مرج ابن عامر أو سهل يزرعيل [illegible] عامرة في الهواء [illegible] في أربع ساعات حتى [illegible] قرية الجون [illegible] دخلنا في [illegible] الاصلاح خصب الزراع وفي آخره [illegible] جبلا [illegible] حتى [illegible] في الرمال [illegible] جبل الكرمل [illegible] على ساعتين من قيسارية (١) [illegible] وكانت من المدن [illegible] عامرة في [illegible] وفي اليوم السادس [illegible] وقيسارية والطيرة [illegible] على ساعة ونصف من [illegible] في هذا اليوم [illegible] الناس [illegible] من [illegible] فلسطين (٢) [illegible] حتى

---

(١) قيسارية [illegible] الشام [illegible]

(٢) [illegible] الشام [illegible]

فعطل الأطفال أن يستقوا من أماكن بعيدة . وفي اليوم السابع اجتزنا بقرى الساحل أمثال جبلة سدود مجدل بربرة بيت حانون غزة وقضينا الليل في دير البلح وفي اليوم الثامن بدأ سيرنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ودام سيرنا ست ساعات دخلنا في رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تخامرني الهواجس تلك الليلة أحاديث أن أقع في يد عدو القرية أو أن [illegible] من يستدل به كأنه على أني انفلت من حارة الأهل في المعمور ولا في مصر أو لا ثقة لي في ذلك القطر ولا عمل وأفتحت عيني قبيل الشروق لأنشد بيت المتنبي

تدبير ذي حنك يفكر في غد   وهجوم غر لا يخاف عواقبا

فلما نجوت بالنجاة وان كنت لا أحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبني آمالي على الأحلام والمنامات حتى اذا قيل لي ما أنت فاعل بعد دخولك مصر [illegible] ان تدعني فرحا لا فرحا لكون لكل شيء من اسمه نصيب ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان بموقع الخطر أو من الوصال على من طال به السهاد والسهر

ومن عجيب ما لاحظته في أراضي فلسطين التي شهدت حكومتها بعض الأثر من عمل مثل التشاؤم بعض الضرر على الاودية في حين لم أرها عرانا في ولايتي سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للأراضي المصرية عدت فلسطين أو القسم الأعظم منها من أرقى بلاد الزراعة فصحت عزيمة حكومة القدس على أن تحصي أرقام الأهل وتعبد الطرق بعض الشيء لأنها أي أهل مدني [illegible] غاية وقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد في بلاد تشبه سهولها وزراعتها البلاد المصرية والأهالي يكادون يشبهون سكان الصعيد بالسحنة وقامتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين ولذلك كما ترى جمهورا كبيرا من جالية المصريين في يافا وغزة وهكذا عند العمير والموز من أشجار البلاد الحارة شائعين في صقع غزة

وظلنا اليوم التاسع في رمال لم يكن يعدو شكلها حدة أيام متوالية الى أن كانت

الإسماعيلية فالقنطرة وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهي البئر الواسعة لم تطو ، قال ياقوت وهي أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بني إسرائيل والخشبي بينه وبين الفسطاط ثلاث مراحل كما في معجم البلدان فيه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخره من ناحية الشام قال أبو المظفر مظفر بن ابراهيم ابن جماعة بن علي الضرير العيلاني معتذراً من تأخره عن تلقي الوزير الصاحب صفي الدين بن شكر وكان قد تلقى إلى هذا الموضع

قالوا إلى الخشبي سرنا على لهف   نلقى الوزير جموعاً من ذوي الرتب
ولو قدرت تلقيت بخدمته   سعيت من غير أين ولا تعب
وإنما الذنب في تركي لقيته   خفت أجمع بين النار والخشب

وكل الجفار رمال سائلة بيض في غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفي شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم وسميت الجفار لكثرة الجفار بها ولا يشرب سكانها إلا منها وكان فيها مياه وخصب ونخل كثير ورطب جيد وهو ملك لقوم مرتبين في قرى مصر يأتونه أيام إدراكه فيجتنونه وينزلون بينه بأهاليهم في بيوت من سعف النخل والحلفاء وفي الجادة السابلة إلى مصر عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل وهي رفح والقس والزعقاء والعريش والورادة وقطية وفي كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين (١) قال المهلبي وأعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان (أما نحن فلم نر كرماً ولا رماناً ولا دكاكين ولا حانات) وأهلها بادية متحضرون ولجميعهم في ظواهر مدنهم أجنة وأملاك وأخصاص فيها أهاليهم ويزرعون في الرمل زرعاً ضعيفاً يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ويقطع في وقت من السنة إلى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرع (والمرع هو

---

(١) قال المقدسي فأما الجفار فقصبتها الفرما ومدنها البقارة الورادة العريش وأما الحوف فقصبتها بلبيس ومن مدنها مشتول جرجير فاقوس غيفة دمو قونة بربيط القلزم

الطير بالقانسية) يصيدون فيه اثناء [illegible] كثيرا [illegible] مملوحا ويقطع أيضا اليوم من بلاد الروم على البحر في وقت من السنة طير كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يقدرون على البازي وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة ما لبواشقهم وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا انكر شيئا من حال جنانه نظر الى الوطء في الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه وقد ذكر بعضهم انهم يعرفون أثر وطء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب فان كان هذا حقا فهو من أعجب العجائب

قلت ومعرفة هذا النوع من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره في الرمل أياما وليس من الصعب ان [illegible] من [illegible] فانه اذا خلا [illegible] من هذه الرمال وهي عبارة عن تلال ومنحدرات ومنعرجات وأخادير لا يلبث ان يشاهد السائر من مسيرة ساعات وفي اليوم العاشر جزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على مسافة [illegible] والمسعوديات على الساحل وفي الحادي عشر نزلنا المزار وفي الثاني عشر [illegible] وفي الثالث عشر [illegible] وفي الرابع عشر عبرنا القطية و[illegible] وفي الخامس عشر بلغنا الاسماعيلية فالقاهرة .

هذا هو الطريق الذي كان يطرقه [illegible] الشاميون منذ عرف التاريخ وكثيرا ما كان بعضهم يؤثره على ركوب [illegible] الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن البحار يسير [illegible] فيقطعونه في أربعة عشر يوما وكان أجدادنا يقطعونه في أربعة أيام على خيل البريد ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم الى الفرما وبها قال البلاذري قوم مستعدون للقتال فقاتلهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى الفسطاط ، فالفرما أو الفرماء كانت حصنا على ضفة البحر يحمل اليوم اسم [illegible] كتب [illegible] أهله من الطير [illegible] وكان [illegible] عظيم من العرب وقد تردد ذكرها كثيرا في شعر أهل القرن الاول وفي الفرما [illegible] الخليفة الأموي [illegible]

إلى مصر فمات فيها وقد ذكر بغداد وحبيبا وقصورها فقال

فليتك كان بالمدا   أو قصرت منه بالفرما
غريب في قرى مصر   يعاني الهم والسقما

والبيتان من أحياء دار السلام والسدة الهم مع اللوم والحرقة. ذكر المقريزي أن الدرب الذي يسلك فيه إلى مصر في القرن التاسع للهجرة إنما حدث بعد خمسمائة من سني الهجرة عندما انقرضت الدولة الفاطمية. وفي المسالك والممالك أن الطريق من دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلا (كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي والذراع أربعة وعشرون اصبعا والاصبع أربع شعيرات ظهر واحدة إلى بطن الأخرى والشعيرة أربع شعرات من ذنب بغل) ثم إلى جاسم بلد أبي تمام الطائي أربعة وعشرون ميلا ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلا ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال ومن طبرية إلى اللجون عشرون ميلا ثم إلى القلنسوة عشرون ميلا ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلا والطريق من الرملة إلى أزدود (١) اثنا عشر ميلا ثم إلى غزة عشرون ميلا ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلا في رمل ثم إلى الورادة ثمانية عشر ميلا ثم إلى أم العرب عشرون ميلا ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلا ثم إلى جرير ثلاثون ميلا ثم إلى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم إلى بلبيس أحد وعشرون ميلا ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا فهذه ثلاثمائة وخمسة وستون ميلا تبلغ نحو ستمائة كيلومتر.

وكان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق من بلبيس إلى الفرما في البلاد التي كانت تعرف ببلاد السباخ من الحوف ويسلك من الفرما إلى أم العرب وهي بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والورادة. فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية في سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب القدس على العريش وهو يومئذ عامر بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام وصار يسلك على طريق البرية مع العرب لخوف الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدي

الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل الى ان ولي ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأنشأ مدينة الصالحية في سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقداري رتب البريد في الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها فصارت أخبار الممالك ترد اليه في كل جمعة مرتين ويتحكم في ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وأنفق في ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة

ومازال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس للخيل ورجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد الا بمرسوم سلطاني وتارة يمنع الناس من ركوبه الا من انتدبه السلطان لمهماته وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان بمرسوم سلطاني قال صاحب الخطط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن ادركنا المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زادا ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها وحرقها في سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا

قالوا والبريد خيل تشترى بمال السلطان ويقال لها السواس والمقومات وهي مقررة على عربان ذوي اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر الى كل مركز أصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل الشهارة وعلى الشهارة والي من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدمغها بالداغ السلطاني وقد أنشأ امراء مصر ومن كان مثل كريم الدين وكيل الخاص الناصري والملك الاشرف خليل وعز الدين كاتب

للمالك وناصر الدين الدوادار التنكزي وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا والظاهر بيبرس البندقداري وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآبارا ودعا كرلانات السبيل وكان الطريق في بعض الأدوار يتحول قليلاً من أول السكة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط في كونه من مصر من الغرب الى الشرق ثم يعرج في بلاد الشام نحو الشمال قليلاً حتى دمشق

وكان هذا الراحل الذي هو غاية المراد أخذ دربا يسير من القاهرة الى بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطيا ومن قطيا الى الوارادة ومن الوارادة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى الخليل ومن غزة الى لد ومن لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجن من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لا يحمل الا في البحر خاصة — كما جاء في التعريف بالمصطلح الشريف — من الثغور الشامية بيروت وصيدا ويعرض على القاطع وعملت اوه في ذلك وكان يسير فكثر وفر منه على طرابلس ثم استقر على جهة بشري المعطرة من جبل لبنان اليوم والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج الى البر بعدات الشريعة تحمل في صحبة أعد له واجب في القربان من يحمل في البر والبحر ومدة ترتيب حمله من حزيران (يونيو) الى آخر تشرين الثاني (نوفمبر) وعدة نقلاته في البر ٧١ نقلة مفارقة مدة ما بينها وقد صار يزيد على ذلك ويجعل لكل نقلة بريدي يدرك به ويحمل معه ثلاج يخبره حمله ومداراته ويحمل الى فرس ويذاق والزمد في كل نقلة خمسة أحمال والمستقر في كل مركز منه ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمري ولا يصل الثلج متوفرا الا اذا أخذ الثلج الجيد وأجيد كبسه واحتفظ عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار للإعلام بحركات العدو

وقد أرصد في كل منهل الماء العذب والطاهرة رؤيته ماوراءهم وإيراد ماشيتهم وهي من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى الى المتجدد بكرة الفرات كان يلوح بباشائر. وهذه المناور بدخانها وبنيرانها أشبه بالطيوسا والاتحكيب لعهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدنية القوم في أسباب النقل والراحة وينزل اليوم في هذه النفود أي الرمال المتراكمة كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون في أصولهم الى بطون وأفخاذ معروفة عندهم تعرفهم بسيماهم نحاف الاجسام صفر الوجوه على نحو وصفهم واصولهم في القرون الوسطى وهم شاوية يقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم في الاكثر الشعير في الشتاء والبطيخ في الصيف ولهم نخيل قليل في بعض واحاتهم والقرب من سبخاتهم ولا حجر في ديارهم يبنون به بيوتهم وما كنهم حصيرة يصنعونها من الخوص فلاهم بادية يأوون الى الخيام ولاهم حضر كالعرب النازلين منذ القدم في ريف مصر كالفيوم والشرقية وغيرهما من مديريات القطر مثلا ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان حوران سورية منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتالون وفي فلسطين يقضون شطرا من السنة في رعي أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى أنها نشرت أعلام الأمن على ربوعهم ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يتحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفح وعندها يوقنون بأنه لا يضيع لهم في تلك البادية عقال بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلا سائرا في الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا ينالهم قسط من مدنية مصر فهم دونها كما حرموا من الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

هذه النفود هي الفاصلة بين مصر والشام بل الحد الطبيعي الذي اصطلحت عليه مؤخرا الحكومتان المصرية والعثمانية في رفح والعقبة على الحد الفاصل بين قارتي آسيا وافريقية لم يحل في كل الازمان دون اختلاط أهل هذين القطرين

الشقيقين ومن قرأ تواريخ الجبرتي وابن اياس والسخاوي وابن حجر والمقريزي وغيرهم يدرك ان هجرة السوري الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث في انساب من هم الآن عمال الحكومة المصرية وتجار كبار مصر في عهدها وبعدها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال في المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً في السراء والضراء وعلاقتهما الاقتصادية موفورة مستحكمة وليس أعلق بالقلوب من الصلات المالية واذا نرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية في مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العلية في القرن الماضي عن رأيه في القطرين فقال مصر مزرعة حسنة والشام مصيف جميل.

واذ قد عرفنا أسباب حسن الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين يسوغ لنا ان نطالب في هذا المقام بزيادة أواخي الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هي عليه من طريق البحر فيسعى العقلاء من الماليين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدي عريض حتى يأتي الراكب في أربع عشرة ساعة بدلاً من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الاكتفاء بوصل السكة الحديدية مع أقرب الطرق الى مصر فعليهم الا ان يكملوا الآن ايصاله الى القدس وهناك يتصل هذا الخط بخط حيفا بعد السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما قصيرة لا تقل كلفة مدها على نفقة ادارة الخط الحجازي ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدرعا ودمشق وعندها يسهل على ابن مصر الاصطياف في جبال الشام وتمد هذه بحبوبها وثمارها وترسل مصر الى سورية شيئاً من مدنيتها وعلومها وأعمالها ويتخلص كل من يريد ان يخلص الى مصر من هذه الرمال الموحشة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التي تعود منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها الملح المر الموجع المقرح ولا أنسى السابقين عن التأكل بالمشرب في الايام الخمسة

التي قضيتها في اجتياز هذه الفلوات بما سمعته من أحاديث رفاقي العرب في الإبل حتى صرت كأني بعض رعاتها القائمين على أمرها ولكني حملت النفس على أن تتعلم الصبر من تلك الجمال وطفقت فيها أتمثل ما قرأته بالنظر إليها من مصطلحات العرب في إبلهم وعاداتهم فصار مذهبي ولا فخر جمليا بعد أن كان جماليا وعلمي بالأباعر عمليا وكان من قبل نظريا.

وكان رحلتي في الشهر الماضي إلى الحجاز وعودي إلى الشام ونزولي على أحياء البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما اتممت به هذا الشهر من مواكلة الأعراب في صحفة واحدة والتخلي عن الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس والأكل من أطباقهم وهي أثمن أرز العراق والبرغل وجريش الحنطة بالتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر ببعر الأباعر والإدام في هذه الأيام يخالطه رمل وهذا يدخل في كل مأكول ومشروب تسفيه الرياح طوعا أو كرها ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه القفار إن الجراد إذا أكل يوجد الرمل في معصمه فلا يكاد يبالغ فيه.

وإني أحمد الله الذي يكرمني أني قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لا أطالع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتابا ولا وقعت عيني على ورقة ولا مسكت قلما ولا كتبت خاطرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حداء الإبل وغناء الأعراب ولم يصل فكري إلى أبعد من عمل القهوة العربية وأكل التمر ولم يبلغ أذني غير أحاديث الإبل فصحت والله الآلة المستعذب ترددها المستعذبي الترديد أخبار المدنية ومن تمام التوفيق لي أني رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمثل بين بلاد الشام ومصر ودرست نموذجا صالحا من أخلاق العرب بالاختلاط بجمالين ورعاتها ممن كانوا يختلفون إلينا ونختلف إليهم كل مساء وصباح ولم أسمع كلمة هجر ولا بذاء ولا تجديف قط وما تبين في أخلاقهم إلا الحلم الذي ليس وراءه حد والعزيمة التي تحمد أمثالها العزائم والحث على الدوام بدوام نبينه من الحجارة والمبالغة برعية الإبل والقيام على صحتها فكان وجود السيد

والأرطى والقطف والحمض من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الأشواك والاعشاب كالشيح والرمث التي تستطيبها إبلهم ثم لذهبهم من كل حديث واشهى لقلوبهم من كل نعمة وافعل في نفوسهم من كل نغمة من نغم الحال والكمال

قضيت وسادني اسبوعين كاملين في حال الأباعر والبعران والابل والحوار والظعن والعطان والكثب والكثبان وشنن ودرس وزرد وتصدى وتدبج وسري ونشد وأمرج وتضحى وتعشى وغير ذلك من فصح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الأميين ولو أردت أن استوفي ما سمعته من هذا القبيل لاستغرق بحثاً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يا فلان خذ من فلان كذا حبها وأنت الهائج أي الثائر من الهيج وهو الطفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نبوة ولا غيبة ولا شهدت كذبا ولا منكراً وكان أولئك الأعراب باجمعهم محافظين على صلواتهم دون تكلف يتيممون من رمل ميؤوم ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة كنت أظنها انقرضت في البادية ونحن لا نعتقد بأنا من أهل الحضر ولو تهيأ لسكان المدن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لكانوا ولا حرج الاكملين المكملين بأخلاقهم وآدابهم ودينهم واني لما خبرت القوم أيقنت بفساد النظرية التي وضعها أحد الباحثين في أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع أن بلاد هؤلاء الأعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المتينة أهل اعتدال وكمال ورجال مال وأعمال

هذا وقد أطلت عليكم حتى خفت عليكم السأم بحديثي واني حامد شاكر لكل ما تم علي لاني ان الحوادث أكرمتني ولولا الحادثة الأخيرة في دمشق لما تيسر أن أقطع مصر من شرقها وأن أستمتع بها كما الآن وأرجو أن يدوم لي هذا الاستمتاع والتنقل على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يقوم على مصالحها ويسددها من عثراتها وأسأل قاهر الجبابرة والسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين